مجلة المختار للعلوم الإنسانية 07 (1): 30-50، 2008

Research Article

Open Access

التخلف الثقافي كأسلوب حياة

الشيخ أحمد الجيلاني

Doi: https://doi.org/10.54172/s7jpp753

المستخلص : إن التخلف ليس شيئا ناجزا خارجنا، وإنما هو سلوكنا اليومي الذي يترابط فيه ما هو اجتماعي- ثقافي، بما هو اجتماعي- نفسي، بما هو سياسي- اقتصادي، أي ما هو معرفي، إدراكي، تنظيمي، او عقائدي تربوي بيئي. فمن المعروف أن الإنسان "لا يتفهم الظواهر والأحداث إلا إذا ردها الى مواقف أو ارتباطات مألوفة لديه ليسلم بها ولابد من الانتباه أيضا إلى أن أبعاد التخلف في مجتمع معين، قد لا تكون كذلك في مجتمع آخر فيما يصاحبها من أعراض، أو ما يتزامن معها من أنماط إنتاجية او تنظيمية، أو ما يترتب عليها من ظواهر بنائية أو وظيفية أو جدلية... فكل بنية اجتماعية ثقافية تستجيب بطريقتها الفريدة النابعة من عبقريتها [مسيرتها التاريخية] للتحديات التي تواجهها بحسب حجم ونوع التحدي. وبناء على أن جل العلل التي تكمن وراء السلوك الذي نقوم به تكونت خلال فترة مبكرة من تجاربنا، فلابد من الاهتمام بما هو عميق او تحت السطح، مثل مضامين التنشئة الاجتماعية، في أي مشروع لتجاوز او تكريس التخلف. وهذا يستدعي التركيز في هذا البحث على بعض الأبعاد الكامنة لهذه الظاهرة في البنية الاجتماعية الثقافية ، وتسليط الضوء على التخلف الثقافي كأسلوب حياة.

الكلمات المفتاحية: التخلف الثقافي، ظواهر بنائية، أنماط إنتاجية

Cultural Backwardness as a Way of Life

Alsheik Ahmed Aljailany

Abstract: Underdevelopment is not something that is accomplished outside of us, but rather it is our daily behavior in which what is social-cultural, what is social-psychological, what is political-economic, that is, what is cognitive, cognitive, organizational, or ideological, educational, and environmental. It is known that a person “does not understand phenomena and events unless he refers them to situations or associations that are familiar to him in order to acknowledge them.” It is also necessary to pay attention to the fact that the dimensions of backwardness in a certain society may not be the same in another society in terms of the symptoms that accompany them, or the patterns of production or production that coincide with them. Organizational, or consequent structural, functional, or dialectical phenomena. Every social-cultural structure responds in its own unique way, stemming from its genius [historical path], to the challenges it faces, according to the size and type of the challenge. And based on the fact that most of the reasons that lie behind the behavior that we perform were formed during... An early period in our experiences, so attention must be paid to what is deep or beneath the surface, such as the contents of socialization, in any project to overcome or perpetuate backwardness. This requires focusing in this research on some of the underlying dimensions of this phenomenon in the social-cultural structure, and shedding light on cultural backwardness. As a way of life.

Keywords: Cultural backwardness, structural phenomena, productive patterns.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

لا مناص من تفكيك بعض الالتباسات في بداية هذا البحث، من قبيل، أن التخلف ليس شيئا ناجزا خارجنا، وإنما هو سلوكنا اليومي الذي يترابط فيه ماهو اجتماعي- ثقافي، بما هو اجتماعي- نفسي، بما هو سياسي- اقتصادي، أي ماهو معرفي، إدراكي، تنظيمي، او عقائدي تربوي بيئي.

كما لابد من التأكيد على أن لكل بنية ثقافية أسلوبها الخاص في الاستجابة للمواقف المختلفة بطريقة فريدة، مثل العصرنة أو التحديث، حسب جملة المبادئ والرؤى الوجودية التي تلقنها لنشئها، بحيث تتغلغل في كل حركة سلوكية وقيم شخصية وأهداف انتمائية"فإذا كانت تلقن العجز، فسيجتر المتعلم استسلامه ويعيد إنتاجه بأساليب دفاعية مرضية، تشبه حالة الوسواس القهري لهدر الوقت والطاقة والوعي بالإنتاج، لصالح الانصراف نحو الاستهلاك"، (انظر، حجازي، 2005) السلعي والمعرفي والتنظيمي...فمن المعروف أن الإنسان"لا يتفهم الظواهر والأحداث إلا إذا ردها الى مواقف أو ارتباطات مألوفة لديه ليسلم بها"(انظر، اريك، 1994) كما لابد أيضا من الإشارة الى صعوبة التمييز في الظواهر الاجتماعية بين المتغيرات السببية والوسيطة والمصاحبة أو الموازية وتلك المترتبة أو الناتجة، وخاصة في الظواهر ذات الطابع العلائقي أو الترابطي المتشابك (فكل الظواهر، هي في الواقع نتاج لما قبلها، كما قد تكون عللا لما بعدها).

ولا بد من الانتباه أيضا إلى أن أبعاد التخلف في مجتمع معين، قد لاتكون كذلك في مجتمع آخر فيما يصاحبها من أعراض، أو ما يتزامن معها من أنماط إنتاجية او تنظيمية، أومايترتب عليها من ظواهر بنائية أو وظيفية أو جدلية... فكل بنية اجتماعية ثقافية تستجيب بطريقتها الفريدة النابعة من عبقريتها [مسيرتها التاريخية] للتحديات التي تواجهها بحسب حجم ونوع التحدي، أوكما يقول (تويمبي)، وبالنظر إلى المقاربات للنماذج الإرشادية التي خبرتها لحل المشكلات، وفي سياق خصائصها البنائية {الاثنية، العقائدية المعرفية الانتاجية، وكذا أطوارها التاريخية والتنموية...}.

---

* قسم علم الاجتماع، جامعة عمر المختار، فرع القبة

إن الانتباه الى صعوبة التمييز بين متغيرات الظاهرة أو أبعادها، أصعب ما تكون بين الظواهر المركبة أو الكلية المتعددة الأبعاد والتفاعلات بشكل يتبادل التعزيز مثل ظاهرة "التخلف"، مما يعطيها قوة وتماسكا وصلابة أمام عمليات التغير، سواء على مستوى البناء الاجتماعي(الطبقي، الاثني، القبلي، الطائفي...)، أم على مستوى البناء النفسي(الدافع للإنجاز والابتكار، أو الأستقلال، أو الإدراك والأنتباه...)، أم على مستوى البناء الثقافي الرمزي(القادر على توظيف العقل الجمعي أو استخدام الحوافز الاجتماعية المشتركة التي تنصهر فيها العواطف والخبرات البشرية المتاحة بأقصى طاقتها، باتجاه بناء).

وبناء على أن جل العلل التي تكمن وراء السلوك الذي نقوم به تكونت خلال فترة مبكرة من تجاربنا، فلابد من الاهتمام بما هو عميق او تحت السطح، مثل مضامين التنشئة الاجتماعية، في أي مشروع لتجاوز او تكريس التخلف.

وهذا يستدعي التركيز في هذا البحث على بعض الأبعاد الكامنة لهذه الظاهرة في البنية الاجتماعية الثقافية. ويمكن الانطلاق في ذلك من المسلمات التالية:

الأولى: إن بنية العقل الذي ينتمي الى ثقافة ما، تتشكل لا شعوريا داخل هذه الثقافة ومن خلالها، وتعمل بدورها وبكيفية لا شعورية كذلك على إعادة إنتاج هذه الثقافة نفسها " (الجابري، 1986، 40).

الثانية: تشير سوسيولوجيا المعرفة الى تأثير الأسس الحضارية الاجتماعية في تطوير الاتجاهات المعرفية والإنتاجية "فما ينتجه المجتمع من معارف وغيرها، لا يأتي من الغيب، وليس بمعزل عن القيم الحضارية والنظم الاجتماعية، وإنما يتراكم تجانسا مع معطيا ت المجتمع وقيمه واتجاها ته، فكلما زادت معرفة جماعة معينة بنسق معرفي، كلما زادت قدرة أفرادها على الإبداع فيه، أي أن التقدم المعرفي ليس من صنع العباقرة الأفذاذ وإنما يتوقف على مستوى المعرفة وأساليب التقدم في المجال الاجتماعي الثقافي وفي السياق الزماني والمكاني (الخوري، 1985، 14).

الثالثة: " في البدء كان التخلف " وتاريخ التقدم الثقافي اتخذ طابعين،تراوحي وتراكمي – حسب (شتراوس)- فالجماعة المنغلقة تفرض العزلة على نفسها فتظل تراوح مكانها الثبوتي أو ألسكوني وتعتقد أنها الأجدى لتأمين ضروريات المعيشة، أما الجماعة المنفتحة فتراكم أجزاء من ثقافتها لتتغير حسب متطلبات البيئة الجغرافية.

وبناء على هذه المنطلقات، يصبح تبني المدخل الديناميكي،- أي البنية الاجتماعية، أو وحدة التنظيم الاجتماعي بما يسودها من تداخل السياقات الاجتماعية، الثقافية، النفسية، بالسياقات الانتاجية والنظم الموضوعية |الذاتية والكفاءة|العلاقات الشخصية أو علاقات الاستزلام والاسترزاق- هو الأنسب لمقاربة أبعاد هذه الظاهرة انثروبولوجيا.وذلك على النحو التالي:

أولا: صور التخلف

تتراوح صور التخلف بين توقف النمو والتقهقر والتباين بين ماهو مادي وماهو معنوي

1- التخلف او الجمود او توقف النموbackwardness

وهذا الجمود قد يكون عاما يشمل جميع النواحي، وقد يكون خاصا بحيث لا يظهر إلا في جوانب معينة، مثل التخلف الثقافي، الذي يظهر على شكل سيادة التقاليد البالية، او المتكلسة التي ترفض أي تغيير أو تجديد

2- التخلف الاجتماعي social backwardness

وقد يظهر على صورة تقهقر المجتمع وجموده وسيادة الاتجاهات الرجعية بين أفراده

3- التخلف الثقافي lag cultures

وقد يظهر على صورة اختلال توازن في سرعة النمو بين عناصر الثقافة، بحيث يتغير كل عنصر بسرعة متفاوتة مع تباطؤ الآخر، مثل تقدم الصناعة في مقابل تجمد أوضاع الأسرة دون تغير (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، 1986، 239).

إن مثل هذه الصور لا يمكن التغلب عليها إلا من خلال{تغيير الاتجاهات والسلوكيات عن طريق الوعي بقضية التخلف وأبعادها }مثل: الوعي بضرورة القضاء على التخلف – السعي إلى ذلك بأدوات وأساليب مناسبة لتجاوزه إلى التنمية، وذلك لأن تخلف البنية الاجتماعية، أي وحدة التنظيم، يترتب عليها- حسب(هاجن) انتقال السلوك عبر الأجيال بشكل جامد وسيادة التراتبية الجامدة – تحديد مكانة الفرد بالولادة بدلا من الكفاءة – الرضوخ للقوى الماورائية – إضافة الى سيادة البني الاجتماعية المتسلطة التي تنشأ عنها شخصية ذات بنية سلطوية، مما يعمم العلاقات المتصفة بالسيطرة والرضوخ، وهذا بدوره يعرقل قوى الرفض والتغيير الاجتماعي والقيمي الموجه للوجود، في عمليات التنشئة وأنماط التربية، و يتيح للأساطير والمعتقدات المليئة بالتسلط والرضوخ بالسيطرة، إلى حد يصبح معه التخلف أسلوبا في الحياة، يوجد قي كل حركة او توجه أو قيمة، أو ما يحدد للأشخاص مكانتهم أمام أنفسهم وأهدافهم الانتمائية مثل، هدر الطاقة- هدر الوعي – الخضوع - الاستهلاك...الخ (حجازي، 1976، 35- 36).

ثانيا: علاقة الأساليب الثقافية بالتخلف الاجتماعي

تلعب الأساليب الثقافية دورا أساسيا في تكريس أو تجاوز التخلف- كما سبقت الإشارة – سواء من حيث خلق الحوافز والتوجهات نحو قيم الإنجاز أو الاستهلاك، أو من حيث علاقتها بالبنية الذهنية، أو ترسيخ منهجية الإدراك المنطقي الأستدلالي أو الأستقرائي، أو تحفيز الانتباه والذكاء، بما هو متضمن في بنية اللغة وأساليب التعبير الموسيقية والفنية الأخرى بشحناتها الأنفعالية الأولية المختلفة.

I- العمليات الاجتماعية الثقافية والعمليات الاجتماعية النفسية والنمو الاقتصادي

قدم (دافيد ماكليلاند) بحثا متوسعا حول الدافعية للإنجاز، اشتمل على الجانب الاجتماعي الثقافي، انطلاقا من قناعته بأن النمو الاقتصادي لأي بلد، هو عملية اجتماعية نفسية، فهو مرتبط بالنمو الثقافي والتدريب على

الاستقلال المبكر والحاجة الى الإنجاز، أي أن النمو لا يترسخ في غياب الظروف الاجتماعية الثقافية التي تساعد على نشأة دافع الإنجاز، الذي يحدث النمو الاقتصادي الاجتماعي.. الذي يعني ترسيخ القيم الصحيحة المشتركة، أو حدوث تغيير في القيم والنظام التعليمي، الذي يؤدي الى إطلاق الأحداث والعمليات الاجتماعية النفسية، حيث يتحلى الوالدان والمدرسون بالاتجاهات نحو التأكيد والتدريب على الاستقلال في علاقاتهم الرسمية وغير الرسمية مع الأطفال، مما يخلق الحاجة الى الإنجاز لدى الأطفال ودرجة من المجازفة أو الاستعداد للمغامرة ومعايير الأداء، مما يؤدي الى تشجيع الكفاءة لدى موظفي الحكومة.

وأثبت الأرتباط بين دوافع الإنجاز والنمو الاقتصادي على مدى فترة من الزمن، أي أن النمو يحدث بعد عدة أجيال من وصول صور الإنجاز إلى ذروتها، { كما هو مبين في الرسم التخطيطي التالي}، كما أن تدهور النمو الاقتصادي يقع بعد فترة من سقوط دافع الإنجاز..

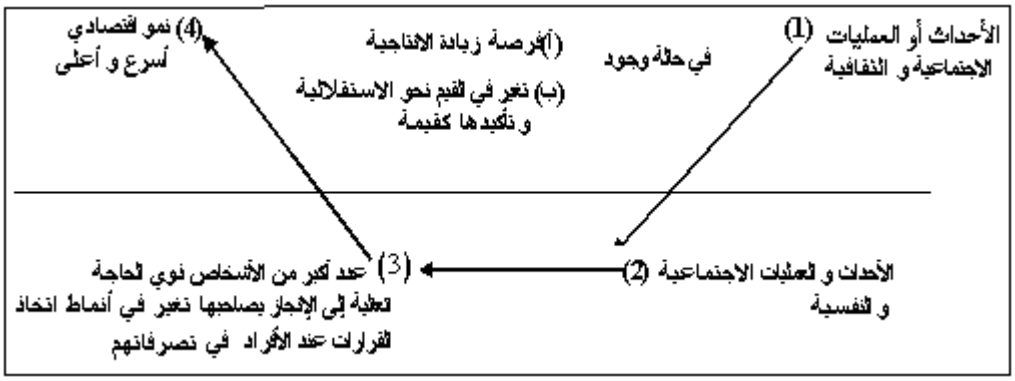

نقلا عن لامبرت، 1989، 222.

ويمكن ملاحظة ارتفاع أو تراجع دافع الإنجاز في روح الثقافة{خطب الجنازات- أنظمة القيم الدينية – ومضامين عمليات التطبيع الاجتماعي فيما يتعلق بالاستقلالية والحاجة إلى الإنجاز}.

كما توصل إلى أن التدهور في قيم الإنجاز قد يقع نتيجة استخدام العبيد أو الخدم لتربية الأطفال خلال فترة الثراء، لأنهم يحرمون من التربية على الاستقلال المبكر، في مقابل تمتعهم بالدلال أو الأعتمادية، ومن المعروف "أن الذي يحقق أهدافه بإمكانيات ضئيلة، لا يجد نفسه مدفوعا بتطويرها "، وإن كان هذا يعني من زاوية المدى الطويل "أن ما قد يأسف عليه شخص من عدم قدرته على تحقيق ذاته، يعتبر من ناحية أخرى ضمانة للأستمرار في التطوير لهذه الذات "، (أريك، 1994، 116، 117).

وتوصل (ماكليلاند) إلى أنه كلما زادت الإشارات إلى الكفاح والإنجاز في كتب القراءة المدرسية، كلما كان المجتمع مهيأ لظهور جيل جديد بإنتاجية أعلى، أي أن تجاوز التخلف عبارة عن سلوك متعلم أو مكتسب، كما

أنه كلما اتسمت الأبنية التنافسية بالانفتاح والمرونة ومكافأة الاعتماد على النفس، كلما زادت دوافع الإنجاز شجاعة.

كما توصل إلى أن الأعتقاد الأيديولوجي بأن النظام الثوري هو الأصلح، قد يدفع إلى مزيد من الرغبة في الإنجاز متى كانت هذه الأيديولوجية نابعة من الداخل، أي من الإحباطات الحافزية للثقافة الاجتماعية، وعلى العكس من ذلك، إذا كانت مستوردة من الخارج، - فإن الحاجة إلى الإنجاز تظهر منخفضة-، كما هو ملاحظ في كتب الأطفال في (بولندا) أثناء الحقبة السوفيتية

ونبه (ماكليلاند) إلى ضرورة التمييز في كتب الأطفال بين الحاجة الى القوة والحاجة الى الانتماء، مشيرا إلى أن الأنظمة الفاشية تؤكد على القوة أكثر من الإنجاز والانتماء (لامبرت، 1989، 222 -226)

عملية الإنتاج إذن، لها شروط ذاتية وموضوعية، فالإنتاجية لا تعبر عن نمط الإنتاج ووسائله فقط، وإنما تعبر أيضا عن العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية، كما تعبر عن المعايير الأخلاقية والقيمية والاتجاهات المحورية لثقافة المجتمع.

وهذا يقتضي إجراء تحديد شامل وموضوعي لكل من الحاجات الاجتماعية والفردية المناسبة للعمل، وبعبارة أخرى، إن المناخ الاجتماعي هو الذي يؤطر العملية الانتاجية سلبا أو إيجابا، من خلال ما يسوده من {روح ديمقراطية في العمل – سيادة عقلية الاستحواذ والتسلط والهيمنة- سيادة العلاقات الموضوعية - تسيير المؤسسات حسب أمزجة القائمين عليها – تحديد العلاقات حسب النزوات والرغبات المنحطة التي تغيب المعايير الموضوعية – توقف النجاح في العمل على كيفية بيع الإنسان أو تسويقه لشخصيته والتعامل معها كسلعة معروضة للبيع – الأعتماد على المحسوبية والوساطة بدل الكفاءة }، (الملحم، 1990، 87، 88).

II- علاقة الأسلوب الثقافي بالاتجاهات نحو الإنجاز

تلعب القيم الثقافية الدور الأساسي في تكريس التخلف أو تجاوزه، بما تتضمنه من قواعد التفضيلات الإنسانية المرغوبة واللامرغوبة، كما يتضمن الجانب المعياري للثقافة التصورات الإنسانية عن الواجبات والألتزامات، كما تتضمن الايديولوجيا الاجتماعية والسياسية الحوافز المحركة للفعل الاجتماعي، الذي هو عبارة عن سلوك ينطوي على معنى ذاتي يعطيه له الفاعل، آخذا في أعتباره سلوك الآخرين المشاركين في الموقف، حسب رأي (فيبر).

ولذلك، انطلقت تصوراته عن التنمية والتخلف، من فرضية: "أن كل ثقافة تتوافق مع عصر الآلة بأسلوبها الخاص وطريقتها الإبداعية الفريدة".

وتوصل(فيبر) إلى إثبات صدق فرضيته، عبر مقارنة الأنساق القيمية والعقائدية في المجتمعات الغربية والشرقية، فلاحظ أن المعتقدات [البروتستانتية] كانت ملائمة للتقدم، من خلال الأخلاق التي أسستها، أي

الأخلاقيات الرشيدة، في مقابل فشل الديانات الشرقية عن تقديم مثل هذه الأخلاقيات، حيث أنها لا تعبر إلا عن معتقدات سحرية وسمات شخصية فردية أوأنانية، حيث اعتبرت(البروتستانتية) أن خلافة الإنسان في الأرض تقتضي تعميرها، وأن اكتشاف الله ممكن من خلال اكتشاف قوانينه التي أودعها في الكون...الخ، مما شجع الإنجاز من ناحية ،والبحث العلمي من ناحية ثانية، وذلك على عكس [الكونفوشيوسية والبوذية] التي تحتقر كل ما هو مادي،بدني،ودنيوي.

وأكد على أن التنظيم الديني أو العقائدي، مسئول إلى حد كبير عن تحديد نظام القيم، الذي يحدد الغايات للحياة، ويرسم شكل السعادة وكيفية إشباع الحاجات، و أولويات الحياة أو الوجود، وطريقة الوفاء بتلك الأولويات. فمن المعتقدات ما يعتبر تنويع الثروة وتنميتها انشغال عن الغايات الحقيقة للوجود، وهذا يؤثر على عادات الاستهلاك والادخار، من خلال تحديد الأنماط الاستهلاكية أثناء الطقوس الدينية أو الأفراح أو المآتم أو الأعياد. ومثال ذلك أن تقديس الهندوس للأبقار حرمهم من استخدامها في الزراعة، بل وأتاح لها منافسة الإنسان في استهلاك المزروعات الغذائية، وهذا يظهر تأثير القيم غير المنتجة على ضعف الحافز في تكوين الثروة، ومن ثم ضعف الحافز في بذل الجهد، فالذي يحدد قيمة الفرد وسائل أخرى غير إنتاجية، مثل الاستهلاك المظهري الزائف من الإنتاج، الذي يتدعم بسيادة القيم القدرية، التي تؤمن بأن الواقع المادي قدر محتوم، مما يؤدي إلى عدم جدوائية محاولة تغييره، (غيث، 1986، 174 -179).

ومن أشهر الدراسات الإمبريقية لدور القيم الثقافية في تكريس أو تجاوز التخلف، تلك التي قدمها (بيلاه) بعنوان:{طوكيوجاوا}، التي توصل فيها الى أن متغيري "الخصوصية والأداء " هما اللذان أثارا قوى التحديث في اليابان عندما توافقتا مع العواطف والمشاعر الدينية اليابانية، فعملتا على خلق حوافز الإنتاج، لأنهما انتقلتا إلى النظام السياسي ككل، أو تم تمثلهما، وهكذا، أصبح اهتمام اليابانيين مركزا حول أهداف النسق أكثر من صيانته والحفاظ عليه، فأصبح الإنجاز أو الأداء يمثل القيمة الأساسية " الثيمة المحورية" دون أدنى شك في أهميتها (نفسه، 173).

III-علاقة الأسلوب الثقافي بالإنتاج

تشكل ثقافة كل مجتمع خريطته الإدراكية، أو المجال النفسي لحاملي تلك الثقافة، لإدراك نسقهم القيمي وتوقعاتهم..أي أن الثقافة تشكل توجيهات جاهزة للسلوك في المواقف التي يواجهها الفرد، فالشخص- حسب (سابيرو كيرت ليفن)- يرى العالم من خلال ثقافته " فنحن لا نرى بعيوننا، وإنما هي وسيلة مكودة او مشفرة ثقافيا "، (انظر، كونستانس كلاسن، أسس انتروبولوجيا الحواس، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية).

لقد قدم الانثروبولوجي اللغوي البريطاني(بنيامين ورف) البراهين على تأثير الثقافة على الإدراك، وخاصة الجانب اللغوي منها، وذلك على أساس أن كل لغة تحتضن رؤية معينة او طريقة في الإدراك، بما يشبه التنوع الحيوي البيئي.

وقد ظهرت أولى التجارب لتحديد التأثير الثقافي على الإدراك، بما في ذلك الإدراك البصري، عام 1966، على يد عالما النفس (سيجال وكمبل وعالم الانتروبولوجيا سكوفتش)، واستمرت 15سنة، وتعاون معهم 26 باحثا ميدانيا من ثقافات مختلفة.

وتوصلت التجربة، إلى أن الناس في بعض الثقافات يميلون إلى رؤية الخطوط الرأسية أكثر وضوحا من الخطوط الأفقية، على عكس بعض الثقافات الأخرى.

كما أوضحت(سبدلر)وآخرون في ردهم على اختبارات (رورشاخ)، أن هناك علاقة بين تفسيرا ت بقع الحبر والثقافة، أي أن الثقافة هي التي أملت تلك التفسيرات، وبالتالي أثرت على الإدراك أكثر من التفسيرات النفسية الإسقاطية.ومن ذلك مثلا أن مجتمع (مينوميني) الهندي الأحمر في(وسكنسن)الذي تعرض للانقسام إلى مجموعة مازالت موجهة ناحية الثقافة القديمة، ومجموعة تتعرض للتحول ناحية الثقافة الغربية أو ثقافة البيض، وتتكيف معها، ترتب عليها وجود فروق هامة في السمات الشخصية..مما يعني أن قوالب الشخصية المختلفة، ليست إلا ثمرة للفروق الثقافية.

كما ألقت البحوث أضواء كافية على الجذور الثقافية للاضطرابات العاطفية المختلفة وردود الفعل اتجاه تعاطي المخدرات والكحول، وحتى ردود الفعل اتجاه الضغط والصدمات وأنماط الميكانيزمات (كالحركات الاحيائية-الهستيريا الجماعية-انتشار السحر بشكل بدائي)، (الجوهري، 1993، 108-150).

وتأكيدا على ما ذهب إليه كل من (فرانس بواس وسابير) من أن"التفكير لا يعتمد على اللغة بصورة عامة وحسب، بل وإلى درجة معينة، على كل لغة خاصة في حد ذاتها"، وتأثرا بأفكار عالم اللغويات (سوسير)، توصل (ولهالم فونهمبولت)، من خلال التركيز على اللغة، وخاصة موضوع العلاقة بين الأبنية اللغوية ورؤى العالم، الى أنه عندما يقوم العقل بالتفكير في العمليات اللغوية، فإنه يدرك تصورات معينة، تثبت بواسطة صور صوتية {فونولوجيا}منمطة، وبذلك تتسم اللغة بأنها تكون من ناحية أولى ذاتية subjective من حيث الآلية البنائية الداخلية للمعرفة، ومن ناحية أخرى تكون موضوعية objective، وذلك من حيث هي أشكال صوتية يمكن إدراكها، ومن هنا لابد أن يكون المدخل الدلالي للمعنى المتضمن في الصوت واضحا ومحددا كالصوت (الأسود، 2002، 44 – 45).

وهذا ما أكد عليه البنيوي (شتراوس)، حين اعتبر أن اللغة كأداة غير محايدة، بل أنها من خلال التعبير عن الواقع المتخيل، تساهم في صناعة واقع جديد، وتضفي الطابع الفهرسي على المعنى، مثل المكتبة تماما، فكل

كلمة فيها تحيلنا إلى سياقها، أي إلى الكلمات التي تناسبها، وحسب السياق الذي تتضمنه المحادثة، مثل نبرة الصوت وتعابير الوجه والإيماءات..الخ " فكلمة أنا قادم الساعة (5)، قد تعني وعدا وقد تعني وعيدا أور جاء. وذلك لأننا مجبورون على إدراك المعنى اللغوي من خلال علاقته بأضداده، فندرك (3) من خلال علاقتها ب (1و 2 و4)، فمعاني كل كلمة تشكل بنية لما تستدعيه، مثلها في ذلك مثل الألوان."

ولذلك فحينما يدعي (شتراوس) أنه اكتشف البنية الكامنة في سياق القرابة في المجتمع القبلي، " فإنه يدعي بذلك أنه اكتشف البنية الكامنة في مصطلحات القرابة، أي الأفكار التي تتحدث بواسطتها هذه المجتمعات عن القرابة "، (الجيلاني، 2008، 82).

وأكدت الدراسات المقارنة بين اللغة الإغريقية والأوروبية عموما، والصينية والآسيوية عموما، حول ما يتألف منه العالم، أو عما إذا كانت اللغة تقدم العالم من خلال الأفعال أم الأسماء، أن مضمون التعبير مرتبط ارتباطا وثيقا بالشيم" النفستماعية" والثقافية، وبمعنى آخر"إن التعبير وعاداتنا الفكرية متداخلان تداخلا كبيرا، وهما بمعنى من المعاني شيئا واحدا "، حسب (سابير)، أي أن أي ظاهرة اجتماعية يتداخل فيها الوعي الإنساني بالوضع الذي على أساسه يتم التفاعل بين الانسان والشروط المادية، في جدلية تتخذ منحنى يضم البعد الذاتي الناتج عن الوعي باستجابة الناس وبناء الخبرة المرتبطة بتاريخهم، (الزين، 1987، 40).

فالصينيون يعزفون عن التصنيف، لأن كتاب "الطاوتي شنج" له نظرة سوداوية عن أثر التصنيف إلى فئات، لأن اعتماده - في نظره – يفتت المعرفة، أي أن القسمات المشتركة بين الموضوعات كأساس لتصنيفها إلى فئات لا يفيد، بل يجب أن تكون الموضوعات نفسها وحدة التحليل كمجال مترابط، وهذا شكل إيمانهم بالاستقرار و الأنسجام.

أما الإغريق، فعالمهم مؤلف من موضوعات، والعلاقة الطبيعية في نظرهم هي علاقة الفرد بالفئة، وهذه العلاقة أوالتوليفة، شكلت محور إيمانهم بإمكانية الاستدلالات الاستقرائية الدقيقة، وتنظيم المعرفة على هذا الأساس، يفيد و يشجع الاستقراء عن كل قضية على حدة، على عكس التمثيل المعرفي القائم على أساس المجال الكلي.

لذلك فالغربيون يميلون إلى تصنيف الموضوعات الى فئات، ويجدون أن الأيسر لهم تعلم فئات او مقولات جديدة عن طريق تطبيق قواعد عن الخواص على الحالة الفردية، ويعتمدون على الاستقراء الفئوي، أنطلاقا من الحالات الجزئية الفئوية، وصولا إلى حالات أخرى، أي الفئة ككل.

ويتم غرس القواعد المعرفية من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية مشكلة أساليب التوجيه والإدراك العقلي، فالغربيون يشيرون إلى الفئات، ثم يلحقون بها أوصافها (الدب، وأوصافه)، فأصبح التعلم بهذه الآلية أيسر بالنسبة لأطفالهم.

وفي المقابل يتعلم الآسيويون معنى الفعل، من حيث ما يتضمنه من نشاط وروابط بين مكوناته، فالرمية مثلا، تشتمل على استخدام الذراع وقبضة اليد لنقل شيء عبر الهواء إلى موقع آخر، ولذلك يسهل على أطفالهم تعلم الأفعال أكثر من الأسماء.

أما عن علاقة ذلك ببنية اللغة، فقد لاحظت عالمة النفس (تويلا تادريف)وآخرون، أن الأفعال أكثر بروزا في اللغات الآسيوية، وتنزع إلى أن تأتي في مقدمة الجمل أو أواخرها. وفي الحالتين، فإن للأفعال موقعا بارزا نسبيا في الجمل، على عكس اللغات الأوروبية، التي يكون الفعل فيها مختبئا وسط الجملة في الغالب، مما يعني أن الأستعمالات اللغوية تلعب دورا كبيرا في الدافعية نحو الإدراك لمواضيع معينة دون غيرها، حسب اختلاف الميول اللغوية في تنظيم العالم في ضوء (إما الأفعال وإما الأسماء) أو من زاوية (أولوية الأفعال أو المجال، في مقابل زاوية الأسماء أو المقولات).وذلك مصداقا لما ذهب إليه عالمي الانتروبولوجيا اللغوية (سابير وورف) من أن عمليات التفكير المعتادة لدى الناس تعكس فوارق البنية اللسانية بين اللغات (فريتشارد، 2005، 135 – 155).

وتتأتى فاعلية اللغة في العقل ونشاطه الفكري عبر ما تحمله من تصورات خاصة أو معينة للكون أو الوجود، وما تقوم به من تحفيز للرؤى، وتوجيه للانتباه إلى موضوعات تلك التصورات، وحتى طريقة أدائها في ترابطات المواضيع وتراتبيتها في الزمان والمكان والأهمية والخطورة والأسبقية... الخ، مما يفضي إلى أسلوب معين في الاستدلال العقلي، وكما يقول عالم الاجتماع (هربرت ميد): "إن وجود العقل أو الذكاء، ممكن فقط تأسيسا على الإشارات كرموز دالة".(ميشيل، 2006، 299). أي أن المثيرات غير المرمزة لا تشكل جزءا من خبراتنا ولا نستطيع معالجتها، فالمثيرات أو الحوادث التي نعجز عن ترميزها، سواء بعامل الأفتقار إلى الأجهزة الحسية لاستقبالها، مثل الموجات الضوئية أو بعض الترددات الصوتية، أو بعامل الانتباه الانتقائي، مثل تلك المواضيع التي ندركها ونحسها، ولكننا لا نريدها أو لا نعير لها اهتماما، أو بعامل عدم القدرة على تمثل المواضيع أو استرجاعها في الذاكرة، لخلوها كخبرة من الشحنات الانفعالية (عبد الله، 2003، 235)، فتستمر قابعة خارج وعينا، ونتعامل معها بطريقة [النوامية].somnambulism

ويبدو أن المستعمرين الأوروبيين عموما والفرنسيين خصوصا، قد انتبهوا إلى ما توصل إليه (فروم) بهذا الصدد، من أن:" أي خبرة لا تستطيع أن تتسرب إلى الشعور الاجتماعي، إلا إذا كان بالإ مكان الأنتباه إليها وربطها وتنظيمها في نسق من المفهومات مع المقولات الثقافية للمجتمع " (أريك، 1996، 116 – 119) ومن ثم إلى أهمية البعد اللغوي في بسط السيطرة على عقول ووجدان المجتمعات، حيث أكد تقرير فرنسي عام 1848 : " إن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها...وعلينا السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي، إلى أن تقوم مقام اللغة الأم، وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا وتمثلهم بنا

وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين "، (عثمان، {د.ت}،18) واستخدمت فرنسا من أجل ذلك أساليب مباشرة وغير مباشرة، أبتداء من إغلاق المعاهد الدينية اللغوية، وانتهاء باشتراط تعلم اللغة الفرنسية للحصول على فرصة عمل، {تحويل لغتهم الى لغة الخبز أو الحياة }

كما تدخل محاولة الغرب إحلال مفهوم الشرق أوسطية محل مفهوم الوطن العربي، أو المنطقة العربية، أو الخليج الفارسي، أو شمال أفريقيا، أو جنوب البحر المتوسط، محل مفهوم المغرب العربي...، في هذا الإطار.

IV- علاقة الأسلوب الثقافي بالذكاء

اهتم الانثروبولوجيون بهذه العلاقة خلال الحركة الاستعمارية في القرن 18- 19، حيث كانت كتاباتهم تحتقر الثقافات المغايرة، وكانوا يكتبون بروح المنتصر، مستخدمين الفرضيات الداروينية، إلى حد اعتبر معه (تايلور) أنه بالإمكان دراسة التاريخ الإنساني عن طريق المقارنات بين مختلف الثقافات الاجتماعية، واعتبارها تشكل درجات على سلم التطور

ووفقا لهذا المنظور التطوري، فإن المجتمعات البدائية، إنما هي مجتمعات توقف تطورها عند مرحلة معينة، وكل من هذه المجتمعات يمثل مرحلة من مراحل التطور الثقافي البشري، مثلها في ذلك مثل اللقى الأثرية أو الحفريات المحنطة في كنف الطبيعة للكائنات البدائية.

وتتموضع الثقافات على هذا السلم الحضاري الإنساني، الذي ربطه (تايلور) بالتطور في المستوى العقلي MINTAL PRGRESS، ومن ثم ربط بين درجة التنوع وثرائها، ودرجة النمو العقلي لدى أفراد المجتمع، وهكذا صنفت المجتمعات غير الأوروبية بأن أفرادها ذو عقل بدائي PRIMITIVE MIND.

لكن المراجعة العقلية لهذا المنظور في الدراسات الانثروبولوجية، التي أجراها(فرانس بواس) رفضت تصنيف المجتمعات على مدرج تطوري من الأدنى الى الأعلى، لأن كل مجتمع يبتدع طرقا وأساليبا في الحياة Design OF LIFE وكل واحد من هذه الأساليب يمثل أسلوبا فريدا في الحياة لأفراد المجتمع للتوافق مع ظروفهم في الماضي والحاضر. وعلى هذا يجب أخذ الأنظمة الأخلاقية والسياسية والفنية في الأعتبار، وليس فقط مجرد التقدم التكنولوجي، لأن ذلك سوف يظهر بطلان فكرة العقل البدائي أو (ما قبمنطقي) التي قدمها (بروهل) ويظهر أنها قائمة على سوء فهم لثقافات غير الأوروبيين.

وعندما راجع(بواس) ادعاءات الانثروبولوجيين القائلة، بعدم قدرة الانسان البدائي على التحليل المنطقي ومتابعة حديث ذو معنى، توصل إلى أن هذه الأمثلة تغفل أن موضوعات النقاش بين هؤلاء الباحثين وأفراد الشعوب كانت مملة بالنسبة للسكان المحليين، ولا تثير اهتمامهم، فكان طبيعيا أن يزهدوا في متابعتها، ولا يهتموا بمنطقها، وفي مقابل ذلك كانوا يتحلون بالجدية والقدرة على التذكر والاستدلال، كلما كان الحديث ذي جدوى بالنسبة لهم ومثيرا لاهتمامهم، بما يترتب على ذلك من ضرورة الاهتمام باختلاف طرق التفكير بدلا من الأهتمام

بالفروق الكيفية بين مراتب أعلى وأدنى للذكاء، أي ضرورة استخدام الأدلة الاثنوجرافية والفلكلورية لفهم خصائص عملية التفكير والذكاء.

وقد نحا عالم الانثروبولوجيا النفسية (ريفرز) هذا المنحى، عندما طبق اختباراته على سكان مضائق (توريس) شمال شرق (استراليا)، وتوصل فيها إلى عدم وجود فروق ذات دلالة في مستوى الذكاء على الاختبارات بين هؤلاء السكان والبريطانيون، وهكذا انتقل هذا المدخل الى علم النفس، على يد مؤسس معمل علم نفس الذكاء عام 1879 م،(طه، 2006، 156).

وهذا يعني أن الذكاء أو الابتكار يتحدد جزئيا أو كليا في ضوء السياق الثقافي الاجتماعي، أي أنه لا يمكن قياس الذكاء إلا في السياق الذي يقوم فيه الأفراد بالسلوك الذكي[حالة د. أحمد زويل]، كما يرى رائد الاتجاه السياقي أو التناسقي التكاملي (سابير)، عندما اعتبر أن كل سلوك ثقافي لا يمكن فصله عن مشاعر الفرد وأفكاره، لأنه عبارة عن سلوك رمزي قائم على معاني مشتركة بين أفراد المجتمع، نتيجة تفاعلهم سلوكيا وعقليا وعاطفيا.

وقد حدد (بري وأرفين) أربع مستويات لتأثير السياق الكلي:

1 – مستوى السياق البيئي الايكولوجي ecological

أي أن الخصائص الفيزيقية التي تمثل خلفية لأفعال الإنسان نؤثر فيها

2 – مستوى السياق الخبراتي experimental

أي أن نمط الخبرات المتكررة تمثل أساس التعلم والنمو داخل السياق الايكولوجي

3 – مستوى السياق الأدائي penfo man

أي أن مجموعة الظروف البيئية التي تؤدى فيها أنواع الأداءات السلوكية تؤثر فيها

4 – مستوى السياق التجريبي experimental

أي الخصائص الفيزيقية والبيئية التي يمكن للباحثين التحكم فيها للحصول على نوع معين من الاستجابات أو أداء الأختبارات

هذه السياقات تمثل إطارا عريضا للثقافة، فتحدد ما هو مهم وما هو عرضي وهامشي لحاملي تلك الثقافة. وهكذا، فالجماعات التي تعتمد على الصيد يؤدي أفرادها بشكل أفضل على اختبارات التمييز البصري، كما أن الأطفال (الإنجليز) يؤدون بشكل أكثر في الرسم على الورق، في مقابل الأطفال (الزامبيين) الذين يؤدون أفضل على الأختبارات التي تتطلب مهامها تعاملا مباشرا مع الأشياء.

كما توصلت الدراسات الانثروبولوجية في السبعينات من القرن العشرين على يد (وبر) إلى أن مفهوم الذكاء يختلف من سياق ثقافي إلى آخر، ومن ذلك مثلا، أن الشخص يعتبر ذكيا في السياق القروي (الأغندي) إذا

كان يتسم بالرزانة وسرعة الاستجابة، أما في السياق الحضري فيقتصر مفهوم الذكاء على النموذج الغربي أي سرعة الأستجابة، أما مسلمو (أغندا)، فيعتبرون الشخص الذكي، هو الذي يتسم باللطف والنبل الاجتماعي.

أما الشخص الذكي في السياق الثقافي الصيني والأسترالي، فقد توصلت دراسة (جيل وكيتس) عام 1980 إلى أن الشخص الذكي لدى الصينيين هو الذي يتسم بتحمل المسؤولية، والروح العملية، ويتصرف اجتماعيا بشكل لائق ولديه ميل للإنجاز ومعايير واضحة لذلك، وهو معيار للتقييم، أي تحديد مكانة الآخرين.

أما السياق الثقافي الاسترالي، فيعتبر الشخص الذكي هو صاحب المهارات اللغوية والاتصالات وله القدرة على حل المشكلات الاستدلالية والمنطقية، ولديه حب الأستطلاع، والقدرات النقدية العالية، والإنجازات الأكاديمية.

وهذا يعني أنه إذا كانت الثقافة الغربية تؤكد على جانب التحصيل الأكاديمي في الذكاء، فإن الثقافة الآسيوية، تؤكد على الجانب السلوكي، مثل التروي، وتعطي وزنا للجانب الأخلاقي، مثل احترام الكبار، إلى جانب الأداء الأكاديمي.(نفسه، 165).

ومن البديهي أن الذكاء الثقافي يتكون من جانب معرفي، يتمثل في القدرة على تحليل العناصر الثقافية واستخدامها في السلوك الشخصي، وجانب فيزيقي، يتمثل في القدرة على فهم الإشارات الجسمية والإيماءات غير اللفظية للثقافات الأخرى، وجانب انفعالي، يتمثل في القدرة على التعاطي والتفهم لمشاعر وأفكار الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة.

ولذلك فإن الذكاء الثقافي يشتمل على أنواع كثيرة، أهمها:

1- الذكاء اللغوي: ويتمثل في مهارات فهم اللغة وإنتاجها واستعمالها كلاما وكتابة

2- الذكاء المنطقي: ويتمثل في القدرة على إدراك الأنماط والأستدلال على التفكير المنطقي، والتمكن من العمليات الرياضية والتعامل بالأرقام.

3- الذكاء المكاني: ويتمثل في القدرة على التعامل البري والبحري والفضائي وفي فنون الشطرنج والفنون البصرية

4- الذكاء الموسيقي: ويتمثل في مهارات الغناء والعزف والتأليف والأستمتاع بالموسيقي.

5- الذكاء الجسمي الحركي: ويتمثل في القدرة على استخدام الجسم لحل المشكلات في مجالات الأداء الحركي الرياضي وأداء الجراحين.

6- الذكاء الأجتماعي: يتمثل في القدرة على التصرف اللائق في العلاقات مع الآخرين في المواقف المختلفة، والقدرة على معرفة نواياهم ومشاعرهم ودوافعهم في المجالات السياسية والمدرسية والعلاجية الاجتماعية والنفسية.

7- الذكاء العاطفي: ويتمثل في القدرة على فهم الذات والأستفادة من ذلك لتنظيم حياة الشخص وتحديد أهدافه وعلاقاته بالآخرين.

8- الذكاء الطبيعي: ويتمثل في القدرة على تصنيف الموجودات.

وهناك من يضيف، الذكاء الوجودي، أي القدرة على الاهتمام بالقضايا الوجودية والمصيرية للإنسان، كما يضيف البعض الذكاء الروحي، أي القدرة على الأهتمام بالقضايا الكونية والخبرات فوق الحسية وتقديرها، (نفسه 234 – 235).

V – علاقة الذاكرة الثقافية أو التراث الثقافي والإبداع

" لقد أوحت تفاحة نيوتن بنظرية، لأنها سقطت على مخزون للمعلومات"، أي أن الذاكرة والمعلومات المخزنة، تلعب الدور الأساسي في القدرة على المقاربات والمفارقات الإبداعية، نظرا لأن الإبداع هو دالة الثقافة والحضارة، ومن الممكن تعليم الإبداع وتنمية الذاكرة الفردية والجماعية، بحيث يصبح أفراد المجتمع أكثر مرونة في تفكيرهم وتعليمهم كيفية التعلم ليسبروا غور القضايا الفلسفية والعلمية بشكل أكثر عمقا.

هكذا، إذن، فإن مستلزمات الإبداع تقتضي الحفاظ على التراث الحضاري الذي ينشأ بدوره عبر العمليات التالية:

1- تنمية قاعدة المعلومات، لأن المعرفة الثرية في شتى المجالات تمنح المبدع والمجتمع مخزنا ضخما من إمكانية تفجير القدرات والامكانات الإبداعية العقلية، متى توفر المبدعون المتميزون بسمات الجلد في أداء الأعمال الشاقة وبإرادة حرة.

2- توفير البيئة الاجتماعية الثقافية والمناخ الملائم للإبداع: حيث يلعب توفير مثل هذا المناخ الأساسي في حرية العصف الدماغي لإنتاج أفكار جديدة، دونما الإحساس بإمكانية التعرض للأذى دورا أساسيا في الإبداع.

3- البحث عن المتشابه والمتناظر من الحلول: تلعب الذاكرة الثقافية دورا كبيرا في تنمية القدرات الإبداعية، حيث يراجع الفرد أو المجتمع ذاكرته، تراثه، لتقديم حلول للمشكلات الجديدة الشبيهة بتلك التي واجهها من قبل عن طريق{ المقارنة }، كأن ينوع في استعمال خبراته أو أدواته لحل المشكلات، فيما يعرف {بالتفكير أو الذكاء التباعدي}، (عبد الله، 2003، 69 – 70).

بناء على هذه الأعتبارات، يتجلى ما ذهب إليه رواد انثروبولوجيا الحواس، من أن الإدراك الحسي، يعتبر فعلا ثقافيا، إضافة الى كونه فعلا عضويا، فالشم والبصر والذوق واللمس، ليست مجرد وسائل لفهم الظواهر، بل هي قنوات يتم عن طريقها انتقال القيم الثقافية، مثل أساليب الاتصال بالكتابة، أو الفنون أو الأفكار المعبر عنها،

سواء بالذوق أو الشم...الخ، وطالما أن الإنسان لا يزال غير متحضر، فإنه يستمتع عن طريق الحواس {الحسية} أكثر من الحواس العليا { البصر والسمع}.

ولهذا، فإن كيفية التعبير عن الأفكار تختلف باختلاف الثقافات، من حيث الحاسة الرئيسية المستخدمة، حيث تجسد طرق المجتمع في استخدام الحواس، أي إضفاء المعنى أو المغزى على عالمه، فيصبح للروائح والمذاقات والأصوات دورها في تصنيف الأشياء في السلوك وتحفيز الإبداع و نمذجة الخبرة الحسية، طبقا للمعنى والتأكيد اللصيق بكل حاسة، الذي يؤثر على التنظيم الاجتماعي، وقواعد العواطف ومجالات التعبير الثقافية الأخرى، مثل ربط النساء باللمسة الأنثوية، والرجال بالحملقة، أو تصنيف الغرب على أنه يستخدم حاسة النظر التحليلية، وربط الآسيويين بالحاسة السمعية التركيبية، والعالم الثالث في إفريقيا بالحاسة اللمسية المتدنية. (انظر، كونستانس، 1997).

وهكذا، تتموضع مصداقية اعتبار(ميرتون)، أن العلم جزء من النظام الاجتماعي يتبادل التأثير ومؤسسات المجتمع، فالعلم يتضمن مجموعة من المقومات الأخلاقية مصاغة في قيم تمارس تأثيرها على التزامات رجل العلم، وتكتسب صفتها من خلال القيم النظامية "الجزاءات"، التي يستدمجها العالم، فتدخل كجزء من ضميره العلمي وأناه الأعلى، فيصبح العالم محاصرا بقيم تشكل جزء من شخصه، كاتفاق قيمي ضمني في مجتمعه.

والمشكلة أن منظومة المجتمع قد لاتتسق وأخلاقيات العلم، فقد يتحول أصحاب المكانات العلمية إلى مستويات اجتماعية متدنية، نظرا لعدم قدرة المجتمع على إدراك وظيفتهم، أو بسبب تعرضهم للقهر السياسي أو الاجتماعي والديني، مما يعيق العلم أو الإبداع، الذي يعني في جوهره تجاوز المألوف الاجتماعي أو السياسي للوصول إلى تصور جديد، مما يحتم الصدام بمراكز القوة، أو أصحاب المصالح من الوضع السلطوي القائم، حتى في النظم الليبرالية التي يشبهها (جولدنر) بالايدولوجيا المدعمة ماليا، حيث تقوم على مكافأة من يدلي بالأكاذيب لصالحها "مافيا عقلية"، وتقمع من يقول الحقيقة، فيما يعرف باديالكتيكية العلم والباحث والسياق الاجتماعي. والذي غالبا ما ينتهي بتحول الباحث الى مروج للايديولوجيا، بدلا من البحث عن حلول للمشكلات الاجتماعية، مثل "التخلف"، حيث يتحول إلى متحدث رسمي للذين يمتلكون القوة، دون أن يكون مشاركا فيها، (انظر، فؤاد، 1986).

ثالثا: التبعية والتخلف الثقافي – النفسي

بناء على أن العامل الأساسي في الأجتماع البشري، يتمثل في الرموز الثقافية، وخاصة اللغوية منها، باعتبارها أهم عنصر في المركب الثقافي – حسب الانثروبولوجي (جيرتز)- وبناء على أن الرموز هي الفاصل الأساسي إلى جانب الإنتاج بين عالمي الإنسان والحيوان، وبناء على أن الدراسات أثبتت وجود علاقة وثيقة بين بنية اللغة ونمط التفكير والإدراك والأنتباه والذكاء والإبداع، باعتبار القيم المتضمنة في اللغة تشكل قاعدة تكوين الذات الفردية والجماعية - كما سبقت الإشارة- فإن تأثير اللغة الأجنبية في أي مجتمع، لا يمكن حصره على اللغة في حد ذاتها، وإنما يقترن ببث قيم وتقاليد ثقافية لأصحاب تلك اللغة وتوجهاتهم، التي هي مرتبطة بتاريخ تجاربهم ومعتقداتهم وفلسفاتهم وأساطيرهم"خارطتهم الادراكية"، كما حدث في المغرب العربي، اثر تأثير المستعمر الفرنسي، الذي اجتاز التصدع اللغوي إلى الصراع النفسي، ومظاهر الأنفصام والأغتراب العصا بي.

لقد شكلت البنية الثقافية الحضارية المغاربية المتدنية، في مقابل التفوق الحضاري الفرنسي، معبرا لتقبل أو تبني العناصر الثقافية المهيمنة، من خلال توهم أصحاب المرتبة الحضارية الدنيا بأن مكانتهم تكون أعلى كلما تقمصوا صفات وخصائص أصحاب الحضارة المهيمنة عليهم وتوحدوا معها، مثل كل العملاء والمهزومين، {فالمغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شعارئره وزيه وفعلته وعوائده وسائر أحواله}، كما اشتهر عن العلامة بن خلدون.

ويلعب العامل الاجتماعي بخصائصه الحضارية دور العامل الوسيط بين وجود عناصر ثقافية وافدة والتخلف الثقافي، مثل المزج اللغوي، فهذا المزج يؤدي إلى تشويه اللغة الأم وتفقيرها كنسق ثقافي متميز، أو ما يسمى ب"التخلف الآخر، أو التخلف الثقافي النفسي"، باعتباره تخلف مركب من الثقافي- النفسي، الناتج عن انتشار ثقافة المجتمع الغالب، (الذوادي، 1989، 166)، بما يترتب عليه من تحقير الذات المغلوبة واحترام وتقدير الذات الغالبة، كتوجهات إدراكية نفسية أكثر سطوة وتثبتا من السيطرة العسكرية، نظرا لتأثيرها على مستويات السلوك الاجتماعي الظاهري والضمني:

I– المستوى الأول: السلوك الظاهري أو الخارجي:

لقد نتج عن عملية الأحتكاك الثقافي نوع من المزج اللغوي مع اللغة الأم "المغلوبة" في الحديث أو الكتابة أو هما معا، والأقتباسات في قواعد التفاعل والتحايا والتعبير عن الأنفعال وطرق الأستجابة ومظاهر الملبس والمأكل، واستخدام الأجهزة وغيرها من صفات الآخر، التي تمكن من التوحد معه، وتمنح الوهم بالتحول الى آخر منتصر، أو غير مهزوم، يلاقي التقدير الاجتماعي، ويحد من الشعور بالاخصاء الحضاري- النفسي، إلى حد يصل فيه التبرؤ من تبعات الذات أو استحقاقات الهوية الحضارية، حد سب إسم الجلالة، ولعن الدين والمقدسات، واستعمال العبارات الجنسية البذيئة، التي تعكس افرازات الصراع بين القيم العربية الإسلامية والقيم الفرنسية المسيحية، كتعبير أو مؤشر على تحول الثقافة المفككة، إلى ثقافة معادية لنفسها، أو مرسخة للأتجاهات المعادية لها أو لمكوناتها {الدينية، اللغوية}، [الإسلام والعروبة]، واعتبار هما مبعث خجل، وكأن المغار بيين يحملون مسؤولية إعاقة تحقيق تحولهم الكامل نحو التوحد مع المنتصر الفرنسي، بعقائده المسيحية والأيديولوجية القومية، لأناهم العليا {الدين الإسلامي واللغة العربيةْ}، خاصة أنهما شكلا أكثر القواعد استعصاء على الأختراق (الكولونيالي)- كما سبقت الإشارة- دونما إدراك لخطورة الأغتراب عن الهوية الثقافية والشخصية، فالمعروف أن عدم تطابق الشعائر الشخصية والثقافية، يؤدي إلى الإحساس بضآلة المعنى، لأن الإنسان بحاجة دائما إلى موضوع يستسلم إليه ليتعرف من خلاله على قدراته، وضياع ذلك مرادف لخطر ضياع الذات وعجزها عن معرفة سبب أعمالها وتجاربها "الأغتراب"، (أريك، 1994، 58).

II- المستوى الثاني: السلوك الأجتماعي الخفي أو الداخلي

لقد نتج عن عملية التفاعل غير المتكافئة حضاريا وأيديولوجيا، نوع من التحقير الذاتي في مقابل تقدير الآخر، فأثناء محاولة الشخص تجربة التكيف مع التأثيرات الثقافية، قد يتجاوز مجرد الأقتباسات الخارجية إلى ما هو أعمق وأخطر، حين يتم اختراق إطاره المرجعي الثقافي والوجداني والإدراكي، ويقع في وضع من الأستلاب الحضاري، أو فرض هوية الآخر، بمعنى "أن تصبح شيئا آخر غير أنت، تظن أنه أنت، من خلال إفقادك هويتك الثقافية {إطارك المرجعي}، وإفقادك أي صلة بها، فتصبح تمارس ما ينافيها تماما وتعتقد أنك لا تفعل... . بما يشبه ما يحدث مع الضحية المغتصب، حيث يغرس المعتدي النشوة البدنية في جسد ضحيته، لتتبدل هويتها في نظر نفسها، بتدنيس خصوصياتها "، (فيرونيك، 2002، 185)وترجع الصراعات النفسية التي تنتج عن عملية المزج اللغوي إلى اختلاف القيم المتضمنة في الثقافة الوافدة المسيطرة، عن الثقافة القومية المتراجعة، حيث لا يمكن لمضمونيهما أن يتوافقا أو يتلاءما أو يتعايشا دون إحداث توترات واضطرا بات في الشخصية وقيمها المحورية [العربية الإسلامية] فيما يعرف "بالشخصية الهامشية"، التي تعاني من الشعور بالذنب، نتيجة إدراكها لعجز ثقافتها عن إشباع حاجتها واضطرارها للتطفل على ثقافة غيرها، حيث يسود لديها نوع من ازدراء المثل، ويصبح أبطالها ورموزها موضعا للتندر، وتتغير أساليب تحقيق الذات، وتنتشر الشعوذة

والإدمان والشجار واللامبالاة، إلى أن يظهر ما يعرف"بالإحياء الثقافي"، أي إدخال أنماط ثقافية جديدة تمكن من إشباع حاجات حامليها، وخاصة القيم الأساسية{الوحدة-احترام الذات- العدالة- إشباع متطلبات البناء الأجتماعي} ، (الجيلاني، 2008، 200)، أي توفير المخصصات الضرورية للإنفاق على المؤسسات [الدينية والتربوية والأمنية والقانونية]، ومثال ذلك ما قدمه (بارنت) من قبيلة (سينيكا) وكذلك قبائل (الأركواي) شمال (نيويورك)، (الملحم، 1990، 175).

هذا الشعور بالهامشية، هو ما آلت إليه حالة الهوية المغاربية، حيث أخذ المجتمع بأسباب تحقير ذاته من خلال تحقير قيمه، حتى المقدس منها، في مقابل الأعتداد بقيم الأجنبي، حتى الساذج منها والرديء، كدليل على ما وصل إليه من تدهور وانهيار معنوياته وفقدانه الثقة في نفسه وثقافته القومية.

هكذا، نتج عن الأحتكاكات بالثقافة الغالبة

{تخلف ثقافي}

- مزج لغوي
- معرفة بالثقافة الأجنبية وقيمها

{تخلف نفسي}

- شعور بالدونية
- تلهف لتقليد الطرف الغالب

ويترتب على ذلك أيضا، طغيان المدارس أو الاتجاهات الفكرية للثقافة الغالبة، مما يؤدي إلى إفلاس الفكر القومي، انعكاسا للتركيبة الثقافية الممزوجة، والنفسية المحقرة للذات والتراث العربي، واعتباره لا يتماشى والحياة العصرية، وبالتالي هجر الأستفادة من خبراته وتجاربه واعتبار أي جهد في إحيائه هدر للجهد والوقت.

وذلك على عكس الأمم التي نهضت حديثا [اليابان، الصين، كوريا] التي أحرزت تقدمها من خلال إعادة الأعتبار إلى لغاتها وثقافاتها القومية، مما يعني أن رهان القضاء على التخلف وولوج التنمية، لا يتم اكتسابه إلا باسترجاع الرموز الثقافية القومية لمكانتها في دروب الحياة، وإجراء تحليل انثر وبولوجي لغوي نفسي على بنيتها "وكل المنادين بغير ذلك يمكن إدراج قناعتهم تحت طائلة التخلف الثقافي - النفسي، أي التوهم بالنقص اللغوي القومي وتحقيره، في مقابل الآخر"، (الذوادي، 1989، 168 – 176).

إن الخروج من المأزق إذن، يتطلب تجاوز عقدة النقص والتبعية اللتين تغذي كل منهما الأخرى، للتخلص من العدوانية المرتدة إلى الذات، التي تستنزف التراث الثقافي المغلوب باستمرار، وتحرم أفراده من تنمية مجتمعهم أو ذوا تهم، حيث يكون أقصى طموح لتحققهم الوجودي، أن يصبحوا نسخة من الغالب، بدلا من أن يبتكروا أساليب تفردهم وتميزهم، فهم يعانون إلى جانب كل ما سبق من سؤال أو أزمة الهوية {من نحن، ما إسمنا، عربا، مسلمون، أفارقة، أقطارا، أمة؟}، لتجنب الضياع في فضاءلت نسبية غير متناهية، والتسبب في التباسات

في الأطر المرجعية الموجهة للفعل، (الجيلاني، 2008، 174)، أي تجنب الأفتقار إلى إسم تتصنف تحته الانتماءات الاجتماعية وكل المعاني الفردية، ليكون بالإمكان تنميتها أو تأكيدها من خلال الأبتكارات، و إلا فلن يبقى أمام أفراد مجتمع التبعية من استراتيجية خارج إطار التبعية، ومن ثم إلغاء الذات الاجتماعية ودمجها في الآخر، بكل مقولاته الرمزية، اللغوية والأيديولوجية.

ولعل تصنيف (فروم) للحالات القصوى للشعور الحضاري ينطبق على وضعية مأزق التبعية هذا، حين اعتبر أن الحالة القصوى للحضارات الأرتدادية المتراجعة إلى حد الوجود الحيواني، تصبح الرغبة السائدة فيها على نحو شعوري { الأرتداد أو التراجع، الظلام}، كأساس للإجابات المختلفة التي تقدمها للتحديات مثل التخلف، وتكبت الدوافع العقلانية الأخرى في اللاشعور.

أما الحالة القصوى للحضارات التقدمية، أي التي تقدمت من أهداف رجعية أرتدادية، إلى أهداف تقدمية عقلانية، فتصبح الرغبة السائدة على نحو شعوري "عقلانية تقدمية"، وتكبت الدوافع الأخرى الظلامية الأرتدادية من البروز، (فروم، 1994، 129).

أما العوامل الاجتماعية التي يتوقف عليها أن يصبح الواقع الاجتماعي شعوريا، فتتمثل في توقع المجتمع والطبقة الوسطي إمكانية الاستفادة من عمليات التغيير، فمتى ما توقعت المجتمعات الأفضل من إحداث التغيير، فإنها تقدم شروطا تسهل رؤية الواقع وإدراكه، كما حدث في النهضة الأوروبية خلال القرن ال18، وذلك بإزالة القدسية عن تناول الموضوعات، وإدراجها في مقولات لغوية تسمح بتسربها الى الشعور والأنتباه إليها، (نفسه، 116 – 117).

إن الخروج من مثل تلك المظاهر، هو الذي يسمح للشخصية أو الهوية بالتكامل، أو عدم التفكك لخصائصها {البيولوجية- الثقافية الأخلاقية- الروحية- اللغوية- البيئية- التاريخية...}، حتى لا يبدو المجتمع كمن هدم بيته ودمر أشياءه وأصبح ضائعا بلا خريطة توجهه، أو خبرة ينطلق منها للتمييز، أو تحديد قواعد التفاعل{استجابة "للضغط الإيحائي" بإلغاء أو تدمير الهوية وتفكيكها}.

ولعل مظاهر المقاومة الثقافية للتهجين الثقافي، وتحويل المحليين إلى نوع من العبيد على يد المستثمرين، والبنك الدولي، هو نوع من استمرار الناس في خلق وإعادة تشكيل أعمالهم الحياتية البديلة، لاختراع تجربة منفردة، أو غير مرتبطة بثقافة الغالب، بقدر ما هي مرتبطة بالدلالات التنموية للهوية، كما يقول العلامة البرازيلي(هافلكو)، أي اكتشاف مصادر القوة الكامنة، التي تتناسب مع الهوية وروح الثقافة أو سجيتها، (انظر، أرتورو، الانثروبولوجيا والتنمية، 1997)

كما لا يمكن أن تنطلق الجماعة في تنمية قدراتها المنفردة بمجرد التخلص من العوامل أو المؤثرات الخارجية مثل التبعية، أو السيطرة على قرار تجاوز التخلف، وإنما لابد من تجاوز المعوقات الداخلية كطرق للحياة، من قبيل:

1- الالتزامات المتبادلة داخل الأسرة والجماعات القرابية، فهذا يعيق حوافز الفرد بزيادة دخله{لأنه كلما زاد دخله، كلما زادت التزاماته}
2- سيادة الرأي التقليدي، حيث يتم رفض كل تجديد أو ابتكار، مثل رفض مشروع تربية الدواجن في بعض المناطق [الهندوسية] بحجة الثقافة النباتية
3- التحزبات، فكثيرا ما يتم رفض الإصلاحات، فقط لأن مصدرها ينتمي إلى حزب أو عشيرة حتى قبل معرفة الفكرة
4- خصائص البناء الاجتماعي، مثل {التركيب الأسري الذكوري- الطائفي- الحدة الطبقية...} الذي يعيق انتقال أو تقبل الأفكار الجديدة.
5- سيادة الاتجاهات الثقافية التقليدية "البالية": مثل الأعتقاد في الحظ والنصيب بدلا من التخطيط للسيطرة على المصير، والإيمان بالقيمة المطلقة لكل جوانب الثقافة.
6- البنيان الثقافي، مثل عدم التوافق المنطقي بين عناصر الثقافة، حيث فشل مشروع لتربية الأبقار في الهند لتعارضه مع المعتقد الهندوسي، كما أن هناك مشاكل التعلم، مثل قصور المتلقي الذي يعيق قدرته على استيعاب المعلومة وتطبيقها.(أبو طاحونة، 1997، 243)
7- سيادة ثقافة الفقر، كمجموعة من المعتقدات والسلوكيات التي تتلاءم مع التخلف، التي تنتقل من الوالدين إلى الأطفال مثل{الإسراف- سوء التدبير- عدم بذل الجهد- الافتقار للموهبة – التمارض – الأجور المنخفضة – التعصب والتفرقة العنصرية- اختصار المعتقدات الدينية في الموت والأرواح والأحلام }- حسب (سكار لويس).

الخلاصة: أن سجية الثقافة السائدة في وجدان حامليها، تميز أسلوبهم الخاص في تصور العالم وإدراكه، والأستجابة للمواقف بطريقة فريدة، حسب مبادئ ثقافتهم ورؤيتها الوجودية، التي تلقنها لأفرادها، والتي تتغلغل في كل حركة سلوكية وقيم شخصية، وكلما كانت الجماعة تلقن وتسلك بأسلوب متخلف، فإن أفرادها سيعيدون إنتاج ما تعلموه، ويسلكون في ذلك شتى المسالك، إدراكيا، تنظيميا..وسيكون ذلك متضمنا في لغتهم، لأن العلاقة بين اللغة والفعل"تشبه العلاقة بين الذات والموضوع، فالذات هي التي تقوم بعمل شيء ما للموضوع " كما يرى (هابرماس)، أي أن لغتنا بمضمونها تصنع عقولنا، فنحن- ككائنات بشرية - لسنا إلا أسلوبا معينا في الحياة، أي مجموعة سياقات مرمزة، يستحيل فصلها عن جملة مقولاتها، التي تستبطن ما هو متخلف أوما هو متقدم.

المراجع

1- أبوطاحونة عدلي علي، في التغير الاجتماعي، المكتب الجامعي الحديث، إسكندرية، 1997.

2- الأسود السيد حافظ، الانثروبولوجيا الرمزية، منشأة المعارف، اسكندرية، 2002.

3- أريك فروم، ما وراء الأوهام، ترجمة: صالح حاتم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2002.

4- الجابري محمد عابد، نقد العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986.

5- الجوهري محمد، الانثروبولوجيا،أسس نظرية وتطبيقات عملية،دار المعرفة الجامعية،اسكندرية، 1993 .

6- الجيلاني الشيخ أحمد، الهوية والانتماء في المجتمع الموريتاني،دراسة انثروبولوجية، دار بن تاشفين، العين، 2008.

7- حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي، مدخل سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1976.

8- حجازي مصطفى، الإنسان المهد ور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.

9- الخوري فؤاد اسحق، نشأة الانثروبولوجيا والاجتماع وتطورهما، الفكر العربي، ع، 37 – 38، 1985.

10- دون هانديلمان، الطقوس | المشاهد، ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، ع، 153، سبتمبر، 1997.

11-الذوادي محمود، التخلف الثقافي النفسي كمفهوم بحث في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث، نحو علم اجتماع عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989.

12- ريتشارد إي، نيسبت، جغرافية الفكر، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، فبراير، 2005.

13- الزين نزار، عملية التعريب، الأساليب والمشاكل والحلول، مجلة الوحدة، ع، 33، 34، يونيو، 1987

14- طه محمد، الذكاء الإنساني، عالم المعرفة، الكويت، 2006.

15- عبد الله محمد قاسم، سيكولوجية الذاكرة، قضايا واتجاهات حديثة، عالم المعرفة، الكويت، 2003

16- عثمان سعيد، قضية التعريب في الجزائر، دار الكتاب العربي، القاهرة، { ب، ت}

17- غيث عاطف ومحمد علي، دراسات في التنمية والتخطيط الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1986.

18- فؤاد عاطف أحمد، في الوعي بالعلم، دار الكتاب للنشر والتوزيع، القاهرة، 1986.

19- فيرو نيك ناحوم- جراب، انثروبولوجيا العنف المفرط، جريمة التدنيس، ترجمة: أسعد حليم، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، ديسمبر، 2002.

20- كونستنس كلاسن، وضع أسس لأنثروبولوجيا الحواس، ترجمة: مرفت عمر، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، سبتمبر، 1997.

21- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بدوي أحمد زكي، مكتبة لبنان، بيروت، 1986 22- الملحم إسماعيل، إنتاجية العمل والشخصية المنتجة، مجلة الوحدة، ع، 68، مايو، 1990.

23- ميشيل توماسيللو، الثقافة والمعرفة، ترجمة:شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، 2006.

24- وليم و. لامبرت، وولاس إ. لامبرت، علم النفس الاجتماعي، ط1، ترجمة: سلوى الملا، دار الشروق، القاهرة، 1989.